لويس الرابع عشر

طاغية فرنسا

القيم المعنوية هى دلالة الحياة الفاضلة ، وإنسان بلا مبادئ يفقد روحه ، وتنطلق غرائزه من عقالها متحكمة وغاشمة وضارمة تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضع الميول والرغبات ، ونحن ننسى أن خطايانا تعمر طويلاً وغالبًا ما يعجز الزمن عن قتلها . والحكام يموتون كغيرهم من الناس ، ولكن كثيرين منهم كانت ميتتهم عنيفة كرد فعل لطغيانهم وجبروتهم ، الشعوب عندما تقرر مواجهة ظالميها فإنها لا تهتم بالتضحيات فى سبيل أن تخلص نفسها من التعاسة والشقاء .

ولقد وصل الأمر بحكم لويس الفرد أن سمى عصر باسمه ، وقيل إن شمسه كسفت شموس ملوك عصره ، وكان هذا العصر مليئًا بالانحطاط الأخلاقى وتدهور الفضائل الإنسانية ، وهوت التقاليد فيه إلى الحضيض هذا الطاغية هو لويس الرابع عشر .

ولد الطاغية فى ٥ سبتمبر ١٦٢٨م فى قصر سان جارمان ، وأمه هى « آن دوتريش » ووالده هو لويس الـ ١٣ الذى تزوج

فى سنة ١٦١٥ ، وظلت زوجته لا تنجب لمدة ٢٣ سنة حتى ولدت هذا الابن بعد أن فقدت الأمل فى الإنجاب وبعد أن أصيب لويس الـ ١٣ بمرض عضال وساءت صحته .

كانت جدته عشيقة لأكثر من رجل ، ماتت الفضيلة فى قلبها ، وفقدت القيم وجودها وعاشت لملذاتها ، وكان أشهر عشاقها أفاقًا إيطاليا اسمه « كونشينى » أما عشيقها الثانى الشهير فهو الدوق « بوكنجهام » الإنجليزى والذى كان يطمع فى عرش فرنسا .

وعاش أبوه محرومًا من السلطة :

ولد لويس الـ ١٤ فى جو كله دسائس ومؤامرات ويكفى أن نقول : إن جده هنرى الرابع قد اغتيل فى عام ١٦١٠م ، ولا شك أن كل هذه الظروف أدت إلى تكوين شخصيته وتحديد هويته ، ولقد تولى لويس الرابع عشر حكم فرنسا فى عام ١٦٤٣ أى وهو دون الخامسة ومن ثم أصبحت أمه « آن دوتريش » – بنت فيليب الثانى ملك أسبانيا هى الوصية عليه ، والمتحكمة فى السلطة ، وهكذا تتشابه ظاهرة ولاية أبيه الحكم وكان الساعد الأيمن للملكة الأم هو الكاردينالى « مزران » الذى خلفه « ريشيليو » كوزير أول للدولة الفرنسية وقد واجهت لويس صعوبات جمة عند بداية تسلمه السلطة ، ولعل أهم هذه الصعوبات نشوب حرب أهلية استمرت لمدة ٤ سنوات عرفت باسم حرب « الفورند » ، ظلت

فى الفترة من ١٦٤٨ ، وانتهت سنة ١٦٥٢ وقد قادها الأشراف بهدف استعادة امتيازاتهم الأولى ، ولكن مزران نجح فى تعبئة الجيوش والانتصار عليها ، وبدأ الأشراف يذعنون لأمر الملك ، ولكن بموت مزران سنة ١٦٦١ كان لويس قد بلغ الثالثة والعشرين ، ورأى أنه قد آن الأوان ليجمع السلطة فى يده ولذا لم يعين وزيرًا أول واحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة ورئاسة الدولة وأصبح حتى نهاية أيامه هو الحاكم المطلق لفرنسا فكيف حدث هذا ، ولماذا تحول إلى طاغية يذكره التاريخ بالقسوة والجحود ؟

٧٢ عاما فى الحكم :

فى البداية لنا مجموعة من الملاحظات وهى أن فترة حكم لويس الرابع عشر الرسمية امتدت ٧٢ عامًا أى ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن فهو قد حكم من عام ١٦٤٣ حتى عام ١٧١٥ ، وقد حكم فيها أكثر من نصف قرن بمفرده بعد أن توفى مزران . وكان لويس الرابع عشر خلال تلك الفترة الطويلة من عمر الشعوب ، صاحب النفوذ المطلق المتفوق فى البلاد ، وأطلق شعاره الخالد « أنا الدولة والدولة أنا » .

وإذا كان للطاغية صفات وملكات ، يتمتع بها تتضح فيما يمتلك من زهو وغرور واستبداد الرأى والأطماع الواسعة ، التى يستخدم كافة الأساليب الملتوية والدسائس الغامضة للوصول إليها ،

فإن هذه الصفات كانت أظهر ما توجد فى لويس التاسع عشر .. فقد كان داهية فى سياسته ، شب جافى القلب مغلق النفس ، كتومًا ، كثير الحذر ، قليل الكلام ، يبطن غير ما يظهر ، ويعمل جهده على أن يخفى أفكاره وميوله وهواجسه عن كل ما حوله ، ولا شك أن تحليل شخصية لويس الـ ١٤ يسبب ارباكًا لدى علماء النفس فما بالك بالمؤرخين ، فلقد كان لويس الرابع عشر بحق لغزا عسير الحل ومجموعة من المتناقضات الغامضة التى تجمعت فى النفس الواحدة ، ولا يمكن لأى استقراء لحركة التاريخ أن ينكر أن الشعب الفرنسى فى ظل حكم لويس الـ ١٤ بددت موارده واستنزفت قواه وسلبت ثرواته وكل ذلك لتحقيق أطماع رجل واحد ولتجميد حاكم أحب السلطة أكثر من حبه للسلام ، ووصل بفرنسا إلى مفترق الطرق وأدخل الرعب على قلوب رعاياه ، ووضع أهل باريس تحت رقابة مستمرة وقبض على جميع الذين اشتبه فى أخلاقهم ونصب المشانق فى أنحاء فرنسا وأحاط نفسه بجيش من الجواسيس وكل ذلك ليضمن كرسى الحكم واستمراره فى السلطة .

ولقد بدأ عهد لويس الـ ١٤ بالكراهية ، لأن الشعب الفرنسى كان يكره أمه الوصية على العرش لأنها أجنبية ، كما أن هذه الأم تخلصت من المجلس الذى كان من المفروض أن يساعدها ويرشدها إلى أفضل نظم الحكم ، بالإضافة إلى أنها اعتمدت على شخصية أجنبية وهى الكاردينال مزران .

طاغية . . لماذا ؟

الأسباب التى خلقت من لويس الـ ١٤ طاغية :

أولاً : السلوك العام للملوك وحكام تلك الفترة اعتقادًا منهم أن الملك هو ظل الله على الأرض وأن سلطاته مطلقة وأن على الشعب الطاعة ، ولم يكن البرلمانات أى وجود حقيقى فى تسيير دفة الحكم .

ثانيا : تحكم النساء كوصيات فى أطفالهن الملوك واستئثارهن بالسلطة ولم يكن من السهل انتزاعها إلا بالغدر والضرب بقوة ، كان ذلك واضحًا فى أم لويس الـ ١٣ التى سيطرت عليه وأم لويس الـ ١٤ التى سيطرت عليه وكلتاهما وصيتان على العرش لأن ابنهما كان صغيرًا .

ثالثًا : الأحداث الداخلية فى فرنسا والتى أدت إلى حربين أهليتين وهما حربا الفروند الأولى والفروند الثانية ، (وكلمة فروند تعنى رماة المقاليع) وقد عرضت كلتا الحربين الملكيتين فى فرنسا للسخرية والخطر والانهيار والفوضى ، وأدى ذلك إلى القبض بيد من حديد على السلطة وإلى حكم العنف والقوة للقضاء على الثورة ، بل وتعرض لويس نفسه وهو طفل للاغتيال .

رابعًا : الحروب الخارجية التى خاضتها فرنسا فى عهد لويس ،

والتى جعلت الحكم شبه عسكرى يمنع من خلاله أى حوار أو جدال أو إبداء الآراء لصالح المجتمع ...

خامسًا : شخصية لويس الـ ١٤ نفسها والتى دفعته إلى سلوك معين ، وذلك المناخ الذى تربى فيه وتلك الأوضاع التى شاهدها بنفسه ، كل ذلك دفعه إلى حلبة الطغيان ناسيًا العدالة لبنى الإنسان فى وطنه .

ولقد ساعد لويس على طغيانه مجموعة من المستشارين ، الذين أحاطوا به ونذكر منهم « ليون » للسياسة الخارجية ، فوكيه للشئون الاقتصادية ، لوتلييه للشئون الحربية ، ولم يلبث أن حل « كولبير » الاقتصادى الفرنسى الشهير محل « فوكيه » ، ومن خلال هؤلاء المستشارين انفرد لويس الرابع عشر بالحكم والتحكم فى كيفية إنفاق أموال الدولة .

وإذا كنا لا ننكر البداية الناجحة للويس عند إمساكه بالسلطة ، فإننا لا يمكن أن نعفيه مما أصاب فرنسا بعد ذلك من انهيار اقتصادى ، وتأثر ميزانية فرنسا بسبب تلك الحروب التى خاضها لويس الـ ١٤ ، ولم تكن فرنسا لتجنى من ورائها شيئًا صحيح أن لويس اهتم بتنظيم الشئون الاقتصادية ، كما أنه اعتنى بالجيش والبحرية ، حتى وصل عدد الجيش إلى ما يقرب من ٣٥٠,٠٠٠ جندى خلال خوض حروبها مع أعدائها ، أيضًا اهتم لويس الـ ١٤ بالعلوم والفنون

وقد ظهر فى عهده كتاب فرنسيون عظام أمثال « مولبير وراسين وكورينى ولافونتين » ، واهتم لويس بالأكاديمية الفرنسية التى كانت قد أنشئت عام ١٦٣٥ وفى عهده تأسست أكاديمية العلوم وأكاديمية التصوير والعمارة .

وكلها فى الحقيقة كانت بدايات رائعة ، وكعادة كل الطغاة ، البداية مائة فى المائة ولكن الخاتمة مأساة فاجعة ، بعد أن تصبح الأمور ملك يمينه وبعد أن يضمن سيطرته ، ويكون قد اشترى أصوات معارضيه بالأمل أو بالسراب ، بالحلم أو بالخيال وبالقوة والعنف إن لزم الأمر .

حروب لويس :

خاض لويس الـ ١٤ عدة حروب كان تأثيرها سيئًا على فرنسا ، ولم تكن إلا لتحقيق أطماعه التوسعية فى أوربا ، وأول هذه الحروب هى حرب الأراضى المنخفضة بين عامى ١٦٦٧م – ١٦٦٨ ، وهى الحرب الموجهة ضد بلجيكا ، ثم الحرب الهولندية بين عامى ١٦٧٢ ، ١٦٧٨ ، والتى ترتبت على الحرب الأولى من منطلق أن هولندا وقفت ضد أطماع فرنسا فى بلجيكا ، ثم الحرب الثالثة وهى حرب عصبة أو جزبرج وهى الناتجة عن سخط العالم البروتستنتى على لويس ، نظرًا لقيامه بإلغاء امتيازات البروتستنت الفرنسيين ، وأخيرًا حرب الوراثة الأسبانية ، والتى كانت فرنسا تقصد من

ورائها ١٧٠٠-١٧١٣ إلى فرض حليف لها على العرش الأسبانى ، وهذه الحروب الأربعة لم تكسب فرنسا من ورائها شيئًا ، بل لقد خسرت الكثير من الأموال والمعدات وساءت الأحوال فيها بدرجة لا مثيل لها .

لقد كان لويس الرابع عشر يعتقد أن :

الملك يمثل الإله وهو نائبه على الأرض ، ويتمتع بسلطة مقدسة مستمدة من الإله نفسه ، وأن مباشرة سلطته لا يمكن تجزئتها أو التنازل عنها للغير ، لأنها من حقوق الملك وحده الذى يسأل عن استخدامها أمام الله فقط ، فالوزراء أداة يختارهم الملك لتنفيذ أوامره ، ولا يمكن للشعب أن يكون له أى حق فى الاشتراك فى الحكومة ، والملك وحده هو الدولة لأنها كنظام سياسى لا وجود لها إلا فى شخص الملك وحده ومن أجل ذلك جمع لويس الـ ١٤ أسباب السلطة فى يده دون مشاركة أحد ممن حوله أو من مساعديه .

وقبل أن أعرض لنماذج من طغيانه يجب أن أقول : إن حروب فرنسا المستمرة فى عهد لويس الـ ١٤ أدت إلى إذلالها فى بعض المواقف وجعلتها تفقد زهرات شبابها وصحب ذلك كله انتشار البؤس والذعر فى كل مكان لدرجة أن الدعوات لوقف هذه الحروب كانت مطلبًا للجميع ، ولقد صدق حقًا من قال إن المصائب لا تأتى فرادى ، فكأنما الدهر قد تعهد على أن يلقى بكل ما فى جعبته

من مصائب ونكبات على لويس الـ ١٤ ، الذى حكم منفردًا من خلال مجلس سرى وجمد طبقات الأمة وجعل شعاره « أنا الدولة والدولة أنا » أسلوبًا للمركزية المطلقة ، ولم يفرق بين خزانة الدولة وجيبه الخاص ، وكأن إرادة السماء تريد أن تذيقه ألوان العذاب كجزء من العقاب ، فقد أصيب ولى عهده يوم ١٨ أبريل سنة ١٧١١م بوعكة بسيطة ولكنها أودت بحياته بعد ٢٧ يومًا ، وحزن الملك على ابنه حزنًا شديدًا حيث تغيرت شخصيته تماما فأصبح زاهدًا فى الحياة ..

حركة الأسقف جانسن :

ولقد اتبع لويس الـ ١٤ أساليب العنف للقضاء على حركة الأسقف « جانسن » « وأتباعه » وهم الذين مثلوا فئة الزهد والتقشف فى الكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ولكن البابا وقف ضدهم وحرض لويس عليهم ، وكانت الوحشية المنقطعة النظير التى اتصفت بها هذه الفئة صفحة سوداء فى تاريخ التعصب الدينى فى فرنسا جلبت اللعنة على لويس الـ ١٤ .

نماذج الطغيان :

لعل تعدد الأخطار التى ارتكبها لويس فى حق شعبه جعلت من هذه الأخطاء آثامًا وخطايا ، وكان أشد هذه الخطايا عنفًا ،

عداء لويس لطائفة البروتستانت الفرنسية التى عرفت باسم « الهيجونوت » ، وتحت ميل هؤلاء إلى أعداء فرنسا انساق لويس لرأى مستشاريه ، وألغى امتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها فى مرسوم ملكى يطلق عليه اسم «مرسوم نانت» سنة ١٥٩٨ فى عهد جده ، ولكن لويس وقع قرارًا فى أكتوبر (الأول منه) سنة ١٦٨٥ بإلغاء هذا المرسوم مما كان يعنى إزالة مواطن الأمان وهدم معابد البروتستانت وحرمانهم من حرية العبادة ، ومن حرية مزاولة شعائرهم الدينية ، وترتب على هذا الألغاء أيضًا طرد رجال الدين البروتستانت وإرغامهم على تربية أولادهم على مبادئ الديانة الكاثوليكية ، واتباع طقوسها والخضوع لنظمها فيما يتعلق بالأحوال الشخصية وأثبتت الأحداث أن لويس الـ ١٤ ارتكب بهذا الألغاء خطأ شنيعًا ، لأنه أدى إلى اضطهاد دينى عنيف ، وهاجر الهيجونت « أى البروتستانت الفرنسيون » إلى الدول البروتستنتينية فخسرت فرنسا بذلك خسارة كبرى وخاصة أن معظم هؤلاء كانوا من الحرفيين ، والعمال المهرة وكذلك من كبار رجال المال والأعمال والصناعة فصفوا أملاكهم ، ورحلوا إلى الخارج ففشلت الحركة الاقتصادية فى فرنسا وحدث ارتباك فى خطوط الإنتاج بها ، لأن الاضطهاد الدينى ليس من ورائه إلا انقسام الأمة وحدوث الفوضى الاجتماعية ، والفقراء الذى لم يستطيعوا الهجرة كونوا عصابات أقلقت الأمن ، كذلك بدأت تقوى الدول التى هجر إليها الهيجونوت لدرجة أنه قيل إن النهضة الصناعية فى ألمانيا بدأت تنمو وتنشط

مع هجرة الهيجونوت إليها ، وبمقارنة الأوضاع الاقتصادية فى فرنسا قبل إلغاء المرسوم وبعده نجد الفرق شاسعًا ، وبدأت فرنسا ترى الأيام القاتمة والليالى الحالكة واختنقت البسمة أمام الظلم الاجتماعى ، وانتهى عهد الحفلات والولائم التى اشتهرت بها فرنسا إلى درجة أن آخر أيام لويس الـ ١٤ كانت شؤمًا على فرنسا .

وساهمت الطبيعة بنصيب كبير فى المحن والنكبات فاشتد البرد وأتلفت المحاصيل وفاضت الأنهار ، ولأول مرة تقوم فرنسا باستيراد القمح من بعض الدول بأسعار فاحشة لمنع حدوث مجاعة ، وأصبحت الطرق غير صالحة والكبارى والجسور مهدمة وشلت الحركة التجارية ، وعجز كل فرد عن الوفاء بديونه وتسديد الضرائب المفروضة عليه ، وأعلن كبار الأغنياء إفلاسهم وقامت عدة ثورات بسبب الجوع ومما زاد الطين بلة أن الملك لويس ، أرهق الدولة بنفقاته فقد كان فى رحلاته يصحب معه كثيرًا من السيدات ويأخذ معه كميات كبيرة من الأطعمة والمشروبات واستلزم ذلك عددًا كبيرًا من العربات والحرس والخدم وتطلب نفقات باهظة .

ومما يؤثر عن لويس الـ ١٤ – أسوة بكل الطغاة – حبه الشديد للمدح والإطراء والملق فتفانى كل المتصلين به – ويا ويل الشعوب من مواكب النفاق وذوى الضمائر المعدمة – فى إلقاء عبارات الثناء والإعجاب على مسامعه لكى يحظوا بعطفه ورضاه وقيل :

إن لويس كان يعتبر هذا المدح من مستلزمات حياته كالهواء والماء والطعام ، لا يستطيع أن يعيش بدونه .

بين النفاق والتملق :

وكعادة الطغاة ، نجد أن لكل طاغية هواية معينة ، فمنهم من عشق الموسيقى ، ومنهم من فتن بفن الرسم ، وكان لويس ضمن من قرضوا الشعر فى وقت ما ، حيث أخذ ينظم بنفسه بعض الأبيات فألف قصيدة غزل وضح أنه لامعنى لها ومحشوة بالأخطاء وبينما كان يقرؤها وصل الماريشال « دى جرامون » وكان مشهورًا ببراعته فى التملق للملك حتى قيل عنه إنه أعظم متملق فى فرنسا ، فقدم له الملك القصيدة التى كتبها وقال اقرأ قصيدة الغزل هذه ، وقل لى بعد ذلك عما إذا كنت قد قرأت فى حياتك قصائد بمثل هذه السخافة والوقاحة فأنت تعلم أننى أنظم أشعارًا ولهذا يعث لى الكثير بقصائد وأشعار من كل نوع .

وبعد أن قرأها الماريشال التفت إلى الملك وقال :

« إن كلام جلالتك مقدس بدون أدنى شك وحكم جلالتك على الأمور إنما هو حكم مقدس حقًا ، فالواقع أن هذه أسخف وأوقح قصيدة قرأتها فى حياتى » ... فضحك الملك كثيرًا وقال : « ألا ترى أيضًا أن مؤلفها كثير الإعجاب بنفسه وأحمق » فأجاب الماريشال « إنه يا مولاى لا يستحق غير هذا الوصف الدقيق » .

قال الملك : إننى مسرور حقا لأنك تكلمت بكل صراحة ، فأنا الذى نظمتها ... ذهل الماريشال وقال : يا للخيانة ، ألتمس من جلالتكم إعادتها إلىّ لأنى قرأتها بسرعة وبدون ترو .

فرد الملك قائلاً : كلا يا مارشال لن أعيدها إليك فإن الكلمات الأولى هى التعبير الحقيقى والطبيعى لما يجول فى الخاطر ، ولعل هذا النموذج للنفاق والرياء والتملق من جانب الحاشية والفئة المنتقاة التى تدعى بالصفوة والتى تعاشر الحاكم ليلاً ونهارًا الدليل على أنها تخلق فيه نعرة الغرور وصورة التقديس والتأليه .

مدام سكارون :

وكعادة كل الطغاة ، كان لابد أن يخضع لويس الـ ١٤ لسيطرة إحدى النساء ... هذه المرة هى مدام « سكارون » وهى فاتنة جميلة من أصل نبيل ذات نهد بارز ، وجسد فائر ، ووجه ملائكى ، وتحمل عطفًا لا حدود له ، عندما توفى زوجها الشاعر دخلت هذه المرأة فى خدمة الأسرة المالكة ، وظلت تتقرب للملك لويس الـ ١٤ وبالذات بعد وفاة زوجته فى ٣٠ يونيو سنة ١٦٨٣ ، وكان جرح حبه الأول قد طاب وشفى ، وقد منح لويس مدام « سكارون » لقب مركيزة « دى مانتينون » ، ولم يلبث أن تزوجها سنة ١٦٨٤ ، ثم وقع تحت تأثيرها ولذا كان يمضى أوقات العمل فى حجرتها حيث كان يستقبل الوزراء وكبار الموظفين بينما هى

تجلس بجانبه على مقعد وثير ، صحيح أنها كانت لا تتدخل فى المناقشات ، ولكن هذا لم يكن يمنع أن يستشيرها الملك فى كل شىء يعرض عليه بأن يلتفت إليها قائلاً :

« ما هو رأيك الصائب » ، وزاد تدخلها رويدًا رويدًا فى شئون الدولة وفى توجيه سياسة الملك ، حتى أصبح لها تأثير فى كل عمل من الأعمال بشكل واضح ، وخضع لها الملك خضوعًا تامًا فلم يعد ينفذ أمرًا إلا بعد موافقتها .

ولقد ظل لويس الـ ١٤ حتى لحظاته الأخيرة يعمل بمشورة « مدام دى مانتينون » التى بدأت معه كمحظية وانتهت كزوجة ، ثم أصبحت مستشارة ، ثم جاءت لحظة السيطرة والتسلط وذلك ليس بغريب على طاغية ، لأن هتلر كانت لديه إيفا براون ، وموسولينى كانت لديه كلارا ، وستالين كانت لديه زوجته الثالثة ، كما أن أتاتورك كان لديه أكثر من واحدة ، وغير هؤلاء مما تمتلىء بهم قصص الطغاة ، والتى هى فى الواقع ليست من نبت الخيال ، وإنما هى روايات تاريخية صحيحة بأسانيد مدعمة لدى أكثر من مصدر ... ولا شك أن التسلط من جانب المرأة على رجل الحكم كفيل بضياع صوابه وبفساد آرائه .

فضائح الحكم :

لقد كانت معشوقات الملك يسسن الدولة ، ويتحكمن فى رقاب مسئوليها ، ولم تكن وظيفة الوزراء إلا مطاردة الأزواج الشرفاء

لبحظى سيدهم بزوجاتهم ، وسلطة أجهزة الدولة السرية سلاحها على الشعب بدلاً من العدو ، وامتلأت السجون والمعتقلات بالشرفاء ، وأصحاب الرأى وذوى العقول الواعية ، وكان لويس يطأ القانون حرصًا على سمعة معشوقاته ، وقلد النبلاء سيدهم وفاقوه فى الفجر والعشق ، يمكن أن نقول بلا تجن أنه عهد امتهنت فيه المعانى الإنسانية السامية وفقدت فيه القيم محتواها الأخلاقى ، وأصبحت كلمات الشرف والحفاظ على العرض مثيرة للازدراء والسخرية ، إنها بلا شك فضائح العهد الأعظم لعصر لويس الـ ١٤ ولا يمكننا فى هذه الصفحات القليلة أن تعرض الكثير منها ، بل ستقرأ سويًا بعض السطور ، وأعتقد أنها كافية لنعى ونفهم ما جرى ..

ولعل أخطر فضائح عصر لويس هى فضيحة مدموازيل « فرانسوا زدى مورتمار » ، وهى فتاة ذات جمال من النوع الأخاذ القهار ، الذى لا حول للعقل حياله ولا قوة ، والذى لا ترضى العين أن تفارقه فى الوقت الذى لا تقوى أن تواجهه ، جمال الشمس تحس به النفوس ، وتهفو إليه القلوب ولكن لا تتسامى إليه الأنظار ، وهذه الفتاة كانت تتصارع مع مدموازيل « دى لافالير » التى كانت أقل منها جمالاً وفتنة ومع ذلك فإنها استتأثرت بقلب لويس الـ ١٤ ، ولم يطل الانتظار حيث لم يلبث الملك أن وقع فى شرك جمالها فاتخذها فورا خليلة له ، وهام بها هيامًا جعله يتخطى فى

سبيل إرضائها كل الحدود ، ويتجاوز سائر الاعتبارات ، حتى لقد بنى لها قصرًا بضواحى باريس كاد يحكى فى العظمة قصر فرساى ، بل فوق ذلك أعد لها فى قصر فرساى نفسه عشرين حجرة لها ولحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة ، ومنح أخاها لقب مارشال فرنسا ، وعين والدها حاكما عامًا لمدينة باريس ، ورزقت من الملك سبعة أولاد – رغم أنها كانت متزوجة من رجل آخر.

ولكن الزمن لا يصفو ، والحياة لابد وأن يشوبها الألم ، والسماء لا تسكت عن جريمة الزنا المفضوح حتى وإن طال المدى ، فلقد اشتد غضب الزوج المنكوب وقصد إحدى الحفلات التى تسهر بها زوجته ، وصفعها أمام الملك لويس الـ ١٤ مذكرًا إياه بالعرف والأخلاق ، تاليا عليه آيات من الإنجيل تتوعد الزانى والزانية بالعقاب العاجل فى الدنيا والقصاص الآجل فى الآخرة ، وكان جميع الحاضرين يسخرون من الزوج المثلوم ، ولكن الملك أحس بالخوف داخله وخشى أن يطالب الزوج بأبنائه – أى أبناء الملك – من زوجته ، وله الحق القانونى فى ذلك ولما يئس الزوج من إمكانية أن يسترد زوجته لبس السواد وتوجه إلى الملك فى شكل حزين جعل الكثيرين يتعاطفون معه ولكن الشاعر موليير ألف رواية تسخر من الزوج مؤكدًا فى جملة أخيرة فى روايته هذه الكلمات :

« يا ليت شعرى هل فى مشاركة الأرباب .. عار » وتشاء الظروف أن رجال الزوج المسكين يتشابكون مع عمدة قرية فرنسية ، ويصدر الوزير الأعظم بناء على توجيهات الملك إلى رجال الشرطة وحاكم المقاطعة ضرورة إدانة الزوج مع الحفاظ على مظاهر احترام العدل والقانون ، وأحس الزوج بالمؤامرة ففر إلى أسبانيا ملتمسًا العدل من الله بعد أن يئس من عدل البشر ، وأوعز الملك إلى خليلته أن تطالب بالطلاق وتم ذلك بعد أن لوح جلالته لكبير القضاة بكرسى وزارة العدل ، ووصلت معشوقاته إلى أكثر من عشرة بينما المتعة العابرة لنساء متزوجات وصلت إلى أكثر من مائتى امرأة وبدأت شمس فرانسواز تأفل ، عندما عشق الملك فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها شقراء كالسنبلة تدعى أنجليك إلا أن الغيرة جعلت فرانسواز تقتلها بالسم ، وقال البعض إنها قتلتها عن طريق السحر حيث ثبت أنها كانت تزور مجمع السحرة ، ولكن القدر الذى كان لها بالمرصاد فقد عاشت ٢٧ عامًا فى دير معزولة حتى ماتت .

ظل لويس الـ ١٤ يحكم حتى بلغ سن الـ ٧٧ وهى أطول مدة حكمها ملك فى تاريخ فرنسا ، وقد توفى فى أول سبتمبر سنة ١٧١٥م ، ولقد أمضى لويس نصف فترة حكمه فى حروب ، وكان ميالاً للبذخ وحياة العظمة ، ممتلئًا بالغرور ويرفض الاستماع إلى أى نصح أو إرشاد ، يظن نفسه العبقرى الوحيد على وجه الأرض .

ولويس الـ ١٤ ينتمى إلى أسرة البوربون التى حكمت فرنسا بداية من عام ١٥٨٩ حيث أسسها هنرى الرابع ، ويشاء القدر أن تنتهى مدة حكمها بعد مائتى سنة أى فى سنة ١٧٨٩ حيث تنشب ثورة فرنسا العظمى ، وإذا كان قد أطلق على لويس الـ١٤ يوم مولده « لويس هبة الله»، فإن الشعب الفرنسى عند مماته ودعه دون أن يذرف دمعة عليه ، وكأنه ارتاح من كابوس ظل جاثمًا على صدره لأكثر من سبعين عامًا .

وإذا كان لويس الـ ١٤ قد تميز بعينين كستنائيتين ، وأنف دقيق ، وثغر بسام ، وشكل ناعم ، فإنه فى ذلك لم يختلف عن الطغاة ، ولعل الأعجب من ذلك أيضًا أن عائلة الطغاة دائما قليلة العدد باستثناء نابليون بونابرت ، فإن معظم الطغاة لا نجد إلا شقيقًا واحدًا لهم ، أو لا يوجد على الإطلاق وهكذا لا نستغرب أنه كان للويس الـ ١٤ شقيق ولد بعد سنتين من ولادة لويس وقد أطلق على أخ لويس « فيليب دوق أنجو » . وقد أحب مرة واحدة فى حياته فتاة تدعى « مارى ماتشينى » إيطالية الأصل وهى بنت أخت الوزير الأكبر « مازران » وكتب لها عدة رسائل ولكن الملكة الأم حرمته من حبه الأول والأخير وزوجته زواج مصلحة .

عاش حياته مسرفًا مبذرًا الكثير من الأموال على الحفلات وهو الذى وضع تصميم قصر فرساى ليكون مقرًا للحكم بداية من ١٦٧٠م .

ولقد ظل لويس طول حياته مصابًا بمرض خطير ، يعرف فى عالم الطب باسم « الدودة الوحيدة » ولم يستطع أطباؤه شفاءه منها مع أنه عاش إلى سن السابعة والسبعين فقد ثبت فيما بعد أنهم أساءوا علاجه ، وكانوا أربعة أطباء وصفوا بالجهل .

وقبل أن يسير إلى النهاية نظر بحسرة لمن حوله وقال : « لقد كنت أعتقد أنه من العسير علىّ أن أموت » تمامًا مثل عبارات ستالين وموسوليني وهتلر وأتاتورك .

وفى الثامنة من صباح يوم الأحد أول سبتمبر سنة ١٧١٥ لفظ لويس الـ ١٤ أنفاسه الأخيرة قبل أن يبلغ سن السابعة والسبعين بثلاثة أيام ، ودقت أجراس السماء معلنة نهاية طاغية ورث الحكم المطلق عن آبائه وأجداده ، ولكنه فاقهم طغيانًا وجبروتًا ، آمن من البداية أنه مصدر كل السلطات ، ونسى أن الشعوب لا تفرح بالأمجاد المزيفة وبالبريق اللامع الذى هو فى الواقع لا يمنح التقدم ولا يحمى الحرية ولا يبنى السلام .